الرَسُول وَالعِلم التجريبى

العلم الذى دعا إليه الإسلام ، وحث عليه القرآن والسنة : هو كل معرفة مستندة إلي استدلال . ولهذا لا يعد علماء المسلمين التقليد علماً ، لأنه اتباع لقول الغير بلا حجة .

وعلي هذا يشمل العلم فى الإسلام مجالات عدة تقصر عن الدلالة عليها كلمة « العلم » بمفهومها الغربى الحديث .

فيشمل العلم مجال « ما وراء الطبيعة » مما جاء به الوحى ، فكشف به عن حقائق الوجود الكبرى ، وأجاب به عن الأسئلة الخالدة التى حيرت الإنسان منذ فكر وتفلسف وهى : من أين ؟ وإلى أين ، ولم ؟

بالجواب عن هذه الأسئلة عرف الإنسان مبدأه ومصيره ورسالته ، عرف نفسه وعرف ربه واطمأن إلي غايته .

وهذا أولى ما يطلق عليه لفظ « العلم » بل هو كما يسميه الإمام ابن عبد البر (العلم الأعلى) .

ويشمل العلم مجال (الإنسان) وما يتعلق به من دراسات ، تبحث عن جوانب حياته ، وعلاقاته المكانية ، والزمانية ، والنفسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية ، وغير ذلك مما تهتم به العلوم الإنسانية والاجتماعية .

ويشمل العلم مجال (الماديات) المبثوثة فى الكون علويه وسفليه ، وهى تتضمن علوم الطبيعة ، والكيمياء ، والأحياء ، والفلك ، والطب ، والهندسة وغيرها ، مما يقوم على الملاحظة والتجربة .

وهذا المعنى أو هذا المجال ، هو الذي يقف عنده الغربيون اليوم ، لا يجاوزونه إذا تحدثوا عن « العلم » لأنه وحده الذى يخضع للاختبار والقياس ، وتحكم عليه المشاهدة والتجربة ، ويمكن إدخاله « المعمل » أو « المختبر » .

وأقول : إن الإسلام لا يقف عقبة فى سبيل هذا النوع من « العلم » الذى

تعتبر المادة موضوعًا له ، ولا يعده مقابلاً للإيمان ، أو معاديًا له ، كما اعتبرت ذلك أديان أخرى فى مراحل تاريخية معينة .

بل أقول بكل صراحة واعتزاز : إن تعاليم القرآن والسنة قد هيأت المناخ النفسى والعقلى الذى ينبت فيه هذا العلم ، بحيث ترسخ أصوله ، وتمتد فروعه، ويؤتى أكله بإذن ربه .

ومن هذه التعاليم :

١- تكوين العقلية العلمية :

فهناك عقلية عامية أو خرافية تُصدق غالبًا كل ما يقال لها ، وتقبل كل ما يلقى إليها ، وخصوصًا إذا جاء ممن تعظمه من الآباء أو الكبراء ، وتنقاد لما عليه جمهور الناس صوابًا كان أو خطأً ، ولا تمتحن أفكارها ، ولا تخضع معلوماتها لمناقشة أو اختبار ، شعارها : « هذا ما وجدنا عليه آباءنا » أو « نحن مع الناس أحسنوا أو أساؤوا » .

وفي مقابل هذا اللون : « العقلية العلمية الموضوعية » التى لا تقبل نتائج بغير مقدمات ، ولا تخضع إلا للحجة والبرهان ، ولا تحكم العواطف والظنون فى مقام يطلب فيه اليقين المجرد ، والعلم المحقق ، وقد وضح القرآن والسنة المعالم الأساسية التى تقوم عليها هذه العقلية العلمية ، ونستطيع أن نوجزها فى النقاط التالية :

(١) : ألا تُقبل دعوى بغير دليل مهما يكن قائلها ، والدليل هو : البرهان النظرى فى العقليات ﴿ **قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [النمل : ٦٤] ، والمشاهدة أو التجربة في الحسيات ﴿ **وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ** ﴾ [الزخرف : ١٩] ، وصحة الرواية وتوثيقها فى النقليات ﴿ **ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [الأحقاف : ٤] .

(٢) : رفض الظن فى كل موضع يطلب فيه اليقين الجازم ، والعلم الواثق – ولذا رد القرآن مزاعم المشركين فى آلهتهم بقوله : ﴿ **وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا** ﴾ [النجم : ٢٨] .

ورد مزاعم اليهود والنصارى في صلب المسيح فقال : ﴿ **مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا** ﴾ [النساء : ١٥٧].

وجاء فى الحديث الصحيح : «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»(١).

(٣) : رفض العواطف ، والأهواء والاعتبارات الشخصية حيث يطلب الحياد ، والموضوعية ، وحيث يكون التعامل مع طبائع الأشياء وقوانين الوجود ، أيًا كانت نتائجها . يقول القرآن منكرًا علي المشركين : ﴿ **إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ** ﴾ [النجم : ٢٣] وقال فى خطاب داود : ﴿ **فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ [ص : ٢٦] وفي خطاب الرسول ﷺ ﴿ **فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ** ﴾ [القصص : ٥٠] .

(٤) : الثورة على الجمود والتقليد والتبعية الفكرية للآخرين ، سواء كانوا من الآباء والأجداد ، أم من السادة والكبراء ، أم من العامة والجماهير ، وفي القرآن إنكار شديد علي الذين يقولون ، ﴿ **بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا** ﴾ وهو رد عليهم بقوله : ﴿ **أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ** ﴾ [البقرة : ١٧٠] وفى القرآن كذلك نعى شديد على موقف الأتباع الذين أطاعوا سادتهم وكبراءهم فأضلوهم السبيل ، وبيان تبرئهم يوم القيامة بعضهم من بعض، وتحميل الفريقين تبعة ما هم فيه من ضلال ، قال : ﴿ **لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف : ٣٨].

وفى الحديث أيضًا تحذير من اتباع الجمهور وإن كانوا علي خطأ ، وإدانة لعقلية من يرضى لنفسه أن يكون تابعًا ، وقد خلقه الله سيدًا . « لا يكن أحدُكُم إمَّعة ، يقول : أنا مع الناس ، إن أحسنوا أحسنت ، وإن أساؤوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساؤوا ألا تظلموا »(٢) .

---

(١) متفق عليه عن أبى هريرة . كما فى اللؤلؤ والمرجان (١٦٦٠) .

(٢) رواه الترمذى فى البر والصله (٢٠٠٨) بنحوه وقال : حسن غريب .

وهذا الموقف الأخلاقى الذى يتميز باستقلال الشخصية فى السلوك ، يدعو إلي مثله فى الفكر أيضاً .

(٥) الاهتمام بالنظر والتفكير والتأمل : ﴿ **فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ** ﴾ [الأعراف : ١٨٥] . وفى الإنسان نفسه فهو عالم وحده ﴿ **وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ** ﴾ [الذاريات : ٢١] ، وفى سير التاريخ البشرى ، ومصاير الأمم ، وسنن الله فى الاجتماع الإنسانى ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٣٧] .

٢- محاربة الأمية :

ومن هذه التعاليم التى تهيئ تربة المجتمع لظهور التفكير ، والبحث العلمى : نشر التعليم ومطاردة الأمية ، ولهذا حرص النبى ﷺ على محاربة الأمية التى كانت منشرة بين العرب ، حتى كانوا يعرفون بين الأمم بـ« الأميين » ، وهكذا أسماهم القرآن ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ** ﴾ [الجمعة : ٢] وقال عليه الصلاة والسلام معبراً عن الواقع القائم حينذاك « نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » (١) .

والرائع هنا أن هذا النبى الأمى فى هذه الأمة الأمية ، كان أول من مجد « القلم » وعمل على إشاعة الكتابة ، ومحو الأمية بين أتباعه ، بكل سبيل .

ولا غرو ، فإن أول آيات أنزلت عليه من ربه ، تضمنت التنويه بالقراءة والقلم والتعليم ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ وثانى سورة نزلت من القرآن العظيم سميت سورة (القلم) وفي مطلعها أقسم الله بهذه الأداة الصغيرة فى حجمها ، الكبيرة فى أثرها (القلم) فقال ﴿ **نَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ** ﴾ . وحينما أتيحت للرسول - ﷺ - ، فرصة لتعليم بعض المسلمين الكتابة ، لم يدعها تفوت دون أن يستفيد منها وذلك فى غزوة بدر ، حيث كان

---

(١) رواه البخارى فى الصوم (١٩١٣) .

بعض أسرى قريش ممن يعرفون الكتابة ، فجعل فداء الواحد منهم من أسره ، أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين الكتابة .

وذكر ابن سعد عن عامر الشعبى قال : أسر رسول الله ﷺ يوم بدر سبعين أسيراً ، وكان يفادى بهم على قدر أموالهم ، وكان أهل مكة يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون . فمن لم يكن له فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة فعلمهم ، فإذا « حذقوا » فهو فداؤه [١] .

وذكر أن زيد بن ثابت – أحد كتاب الوحى – كان ممن علمه أسرى قريش. ومعنى هذا أن خطة النبى ﷺ لم تكن قائمة على مجرد « فك الخط » كما يقولون ، بل لابد من درجة « الحذق » والإتقان ، حتى لا ينسى ويرتد إلى الأمية من جديد .

ولم يمنع النبى ﷺ اختلاف الدين أن يأخذ من المشركين خير ما عندهم ، ولا سيما أن مجرد تعلم الكتابة لا يحمل – في العادة – فكراً ولا ثقافة ، ولا يتلون بلون العلم .

ولم يقف حث النبى ﷺ علي تعلم الكتابة عند الرجال فقط بل شمل النساء أيضًا [٢]، وقد علمت الشفاء بنت عبد الله أم المؤمنين حفصة بنت عمر الكتابة [٣] .

٣- تعلم اللغات عند الحاجة :

ومن هذه التعاليم المهمة لإيجاد مناخ علمى : تعلم لغات الآخرين عند

---

(١) « طبقات ابن سعد » : جـ ١ ص ٢٢ طبعة بيروت .

(٢) أما الحديث الذى رواه الحاكم فى المستدرك جـ ٢ ص ٣٩٦ عن عائشة مرفوعًا « لا تنزلوهن الغرف ولا تعلموهن الكتابة – يعنى النساء – وعلموهن المغزل وسورة النور » وقال الحاكم صحيح الإسناد فقد تعقبه الذهبى وقال : بل موضوع .

(٣) أحمد (٦ / ٣٧٢) ، أبو داود في الطب (٣٨٨٧) وسكت عنه هو والمنذرى ورجال إسناده رجال الصحيح إلا إبراهيم بن مهدى البغدادى المصيصى . وهو ثقة كما فى « نيل الأوطار » جـ ٩ ص ١٠٣ طبعة دار الجيل – لبنان .

الحاجة إليها وخصوصًا إذا كان عندهم علم يؤخذ ، أو حكمة تقتبس فلا سبيل إلى الانتفاع بما عند غيرك إذا جهلت لغته . ولم يمنع الإسلام من تعلم لغات الآخرين ، بل دعا إليها باعتبارها وسيلة لنشر دعوته فى العالم .

وذلك أن رسالته – ﷺ – ، رسالة عالمية ، فهو – وإن كان عربيًا ، والكتاب المنزل عليه عربى ، وقد أرسله الله بلسان قومه ليبين لهم – قد بُعث للناس كافة ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨].

فلا بد من ترجمة بينه وبين أرباب اللغات الأخرى ، حتى يمكنه تبليغ الدعوة إليهم ، وتلقى الإجابة منهم ، وقد كان عنده – ﷺ – من أصحابه من يعرف الفارسية والرومية والحبشية ، ويكفيه هم الترجمة منها وإليها ، ولكن لم يكن عنده من يعرف اللغة السريانية التى يكتب بها يهود ، فأمر بذلك كاتب وحيه الأنصارى النابغة زيد بن ثابت – رضي الله عنه – ليتقنها قراءة وكتابة ويستغنى بها عن الوسطاء من اليهود فى ذلك .

قال زيد : أمرنى رسول الله ﷺ ، فتعلمت له كتاب يهود بالسريانية وقال : إنى والله ما آمن يهود على كتابى ، فما مر لى نصف شهر حتى تعلمته وحذقته ، فكنت أكتب له إليهم ، وأقرأ له كتبهم [1] ولعله كان على شئ من المعرفة بها من قبل (لمجاورة الأنصار لليهود) حتى أمكنه أن يحذقها فى هذه المدة القصيرة . ومن هنا حرص كثير من المسلمين على معرفة اللغات ، فترجموا منها وإليها وقال فى ذلك الشاعر :

بقدر لغات المرء يكثُر نفعه ... فتلك له عند الملمات أعوان

فأقبل على درس اللغات وحفظها ... فكل لسان فى الحقيقة إنسان

---

(١) رواه البخارى معلقًا فى الأحكام (٧١٩٥) ، وأبو داود فى العلم (٣٦٤٥) ، والترمذى فى الاستئذان (٢٧١٦) .

٤- استخدام أسلوب الإحصاء :

وإذا كان عصرنا يعتبر استخدام أسلوب الإحصاء من أبرز دلائل الطريقة العلمية فى معالجة الأمور ، وهو فارق مميز بين العلميين والعشوائيين ، أو الغوغائيين من الناس فإن النبى ﷺ . قد بادر إلي الانتفاع بالإحصاء منذ عهد مبكر من إقامة دولته بالمدينة .

فقد روى البخارى ومسلم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ، قال : كنا مع رسول الله ﷺ ، فقال : «احصوا لى كم يلفظ الإسلام » .

وفى رواية للبخارى أنه قال : « اكتبوا لى من يلفظ بالإسلام من الناس » قال حذيفة : فكتبنا له ألفًا وخمسمائة رجل [١] .. الحديث .

فهو إحصاء كتابى يراد تدوينه وتثبيته ، وذلك ليعرف عليه الصلاة والسلام مقدار القوة البشرية الضاربة التى يستطيع بها أن يواجه أعداءه المتربصين به ، ولهذا كان الإحصاء للرجال فقط ، أى القادرين على القتال .

والإحصاء الذى تم فى عهد مبكر من حياة الدولة المسلمة ، وتم بأمر من الرسول نفسه فى سهولة ويسر ، يرينا إلى أى حد يرحب الإسلام باستخدام الوسائل العلمية .

وفى مقابل هذا نجد فى «العهد القديم» : أن أحد أنبياء بنى إسرائيل أراد أن يعمل لهم إحصاء فنزلت عقوبة سماوية بهم ! كأنما (الإحصاء) يمثل تحديا للقدر أو للإرادة الإلهية وهذا ما استنبط منه الفيلسوف المعاصر الشهير «برتراند راسل» أن «التوراة» والكتاب المقدس لا يتيح مناخًا مناسبًا لإنشاء عقلية علمية .

٥- التخطيط :

وإذا كان الإحصاء من دلائل الطريقة العلمية فالتخطيط كذلك ، بل هو أوضح دلالة عليها ، والتخطيط إنما يعتمد على الإحصاء ، ويراد بالتخطيط وضع خطة لمواجهة احتمالات المستقبل ، وتحقيق الأهداف المنشودة .

---

(١) متفق عليه : اللؤلؤ والمرجان (٩٠) .

ومن الناس من يتصورون أو يصورون الدين فى موقف المعارض أو المناقض لفكرة التخطيط العلمى للمستقبل . وهذا من أثر الفكرة القديمة التى جعلت العلم مقابلاً للإيمان ، فهما ضدان لا يجتمعان ، أو خطان متوازيان لا يلتقيان .

والحقيقة أن فكرة الدين في جوهرها قائمة على أساس التخطيط للمستقبل. ففيه يأخذ المرء المتدين من يومه لغده ، وبعبارة أخرى من حياته لموته، ومن دنياه لآخرته ، ولا بد له أن يخطط حياته ، ويضع لنفسه منهاجًا يوصله إلى الغاية ، وهى رضوان الله ومثوبته .

وفى القرآن الكريم قصة جعلها الله عبرة لأولى الألباب ، وهى قصة نبى الله يوسف عليه السلام وفيها يذكر القرآن لنا مشروع تخطيط للاقتصاد الزراعى لمدة خمسة عشر عامًا ، لمواجهة أزمة غذائية عامة . عرف يوسف - بما ألهمه الله ، وعلمه من تأويل الأحاديث - أنها ستصيب المنطقة كلها ، وقد اقترح يوسف عليه السلام مشروع الخطة . ووكل إليه تنفيذها ، وكان فيها الخير والبركة على مصر وما حولها ، قال : ﴿ **قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ** ﴾ [يوسف : ٤٧ - ٤٩] .

ويظن آخرون أن التخطيط للغد ينافى التوكل على الله ، أو الإيمان بقضائه ، وقدره ، ولهذا يستبعدون كل الاستبعاد أن يقبل الدين فكرة التخطيط ، فضلاً عن أن يوجه إليه ، أو يحث عليه .

والحق أن الذى يتعمق فى دراسة كتاب الله ، وسنة رسوله يتبين له أنهما يرفضان الارتجال والعشوائية ، وترك الأمور تجرى فى أعنتها بغير ضابط ، ولا رابط ولا نظام . وبين الرسول ﷺ أن التوكل على الله لا يعنى اطراح الأسباب أو إغفال السنن ، التى أقام الله عليها نظام هذا الوجود ، ولا يكاد مسلم يجهل قصة

الأعرابى الذي جاء إلى النبى ﷺ ، وترك ناقته أمام المسجد قائلا : يا رسول الله، أأعقل ناقتى وأتوكل أم أطلقها وأتوكل ؟ فقال له : «اعقلها وتوكل»[1].

وقال الإمام الطبرى يرد على من زعم أن تعاطى الأسباب يؤثر فى كمال التوكل : الحق أن من وثق بالله، وأيقن أن قضاءه عليه ماض، لم يقدح فى توكله تعاطيه الأسباب، اتباعًا لسنته وسنة رسوله، فقد ظاهر - ﷺ - بين درعين ولبس على رأسه المغفر، وأقعد الرماة على فم الشعب، وخندق حول المدينة وأذن فى الهجرة إلى الحبشة، وإلى المدينة، وهاجر هو، وتعاطى أسباب الأكل والشرب، وادخر لأهله قوتهم، ولم ينتظر أن ينزل عليه من السماء وهو كان أحق الخلق أن يحصل له ذلك[2].

ومن قرأ سيرته عليه الصلاة والسلام، وجد أنه كان يعد لكل أمر عدته، ويهيئ له أسبابه وأهميته، آخذًا حذره، مقدرًا كافة الاحتمالات، واضعًا ما أمكنة من الاحتياطات مع أنه كان أقوى المتوكلين على الله تعالى.

فهو حين أمر أصحابه - بعد أن اشتد إيذاء قريش لهم - بالهجرة إلى الحبشة، لم يكن هذا الأمر اعتباطًا، أو رمية من غير رام، بل كان نتيجة معرفة بالظروف الجغرافية، والدينية والسياسية للحبشة فى ذلك الوقت.

فلم يكن من الحكمة ولا من حسن الخطة أن يأمرهم بالهجرة إلى مكان - مهما بعد - فى شبه جزيرة العرب - فإن قريشًا - بما لها من نفوذ دينى وأدبى - تستطيع أن تلاحقهم.

ولم يكن من الحكمة ولا من حسن الخطة أن يذهبوا إلى بلد تحت سيطرة الفرس أو الروم، حيث يحكمها أباطرة لا يقبلون مثل هذه الدعوة الجديدة.

---

(١) رواه الترمذى فى صفة القيامة (٢٥١٩) من حديث أنس، وقال: غريب أى ضعيف، وأنكره يحيى القطان لكن أخرجه ابن حبان فى صحيحه من حديث عمر بن أمية الضمرى، وإسناده - كما قال الزركشى - صحيح - ورواه عنه أيضا ابن خزيمة فى صحيحه بلفظ: «قيدها وتوكل» وإسناده - كما قال الزين العراقى: - جيد - انظر: فيض القدير ص ٧ حديث ١١٩١.

(٢) نقله الشوكانى فى نيل الأوطار ج ٩ ص ٩٢ طبعة دار الجيل بيروت.

ولم يكن من الحكمة ولا من حسن الخطة أن يذهبوا بعيدا إلى بلاد مثل الهند والصين، حيث تنقطع أخبارهم، وتكون الهجرة مهلكة لهم.

ولقد كانت الحبشة هى المكان المناسب جغرافيا، فهو ليس جد بعيد، ولا جد قريب، بل بينه وبين قريش بحر.

وكانت الحبشة هى المكان المناسب دينيًا، فقد كانوا أهل كتاب من النصارى الذين يعدون أقرب مودة للمسلمين.

وكانت الحبشة هى المكان المناسب سياسيًا، فقد كان يحكمها رجل اشتهر بالعدل والنصفة، ولهذا قال الرسول لأصحابه: «إن بها ملكًا أرجو ألا تُظلموا عنده».

وهذا يدلنا على أن الرسول وأصحابه لم يكونوا فى عزلة عن العالم من حولهم، رغم صعوبة المواصلات بين الأقطار بعضها وبعض.

ويدل على ذلك أيضًا موقفهم من حرب الفرس والروم، وما كان من جدل بين المسلمين والمشركين فى هذا، مما نزلت فيه أوائل سورة الروم ﴿**غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ**﴾ [الروم: ٢، ٣]

وهكذا ... فقد كانوا - وهم فى فجر الدعوة ورغم الضعف والاضطهاد - على صلة بالصراع العالمى بين الدولتين العظميين فى ذلك العصر، أو المعسكرين الكبيرين: الشرقى والغربى.

وأوضح من ذلك موقفه ﷺ فى هجرته إلى المدينة، ففيها يتجلى التخطيط العلمى، والتوكل الإيمانى جنبًا إلى جنب.

فلقد أعد عليه الصلاة والسلام من جانبه كل ما يستطيع البشر إعداده من الوسائل والاحتياطات والمعينات.

ولقد اطمأن إلى المهجر الذى سينتقل إليه، بعد أن بايع المؤمنين من الأوس والخزرج بيعة العقبة الأولى والثانية، واشترط لنفسه أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وذراريهم.

واطمأن إلى الرفيق الذى سيصحبه فى رحلته الجاهدة بما فيها من أخطار، وما تحمله من مفاجآت، ولم يكن هناك أفضل من أبى بكر رفيقًا.

واطمأن إلى الفدائى الذى سيبيتُ مكانه، معرضًا نفسه لاحتمالات الخطر وغدرات المتربصين، ولم يكن ثم أفضل من على ابن عمه أبى طالب فارس الإسلام لهذه المهمة.

ورتب الدليل الخريت الذى يدله على الطريق، وما فيه من منعطفات ومخابئ يمكن أن تضلل عنه أعين الطالبين، فكان مشركًا أمينًا، وهو عبد الله ابن أريقط. وهو ما أخذ منه الفقهاء جواز الاستعانة بالخبرة الفنية غير الإسلامية، مع الاطمئنان والأمان.

وهيأ الرواحل التى سيمتطيها هو وصاحبه، ودليله فى سفرهم الطويل، واتفقوا على المكان الموعود الذى يستقلون به الركائب.

وتخير المخبأ الذى يختفى فيه أيامًا معدودة، حتى تخف حدة الطلب. ويتملك القوم اليأس، واختاره فى غير طريق المدينة، زيادة فى التعمية على القوم، فكان غار «ثور».

وأعد فريق الخدمة الذى يأتى بالزاد، والأنباء، خلال أيام الاختفاء، فكانت أسماء وعبد الله بن أبى بكر، ومن بعدهما عامر بن فهيره مولى أبى بكر يأتى بغنمه فيحلبون منها ويعفِّى على آثار أسماء وعبد الله.

خطة محكمة الحلقات، متقنة التدبير، ولم تُترك فيها فجوة دون أن تُملأ، ولا ثغرة دون أن تُسد، ووضع فيها كل جندى فى دوره المناسب لظروفه وقدراته، فدور أبى بكر، غير دور على، غير دور أسماء، وكل فى موقعه الصحيح.

ومع هذا الإحكام الدقيق، كادت الخطة تخفق، واستطاع المشركون أن يصلوا إلى الغار، ويقفوا على بابه، وكان يكفى لكشف الأمر وإفساد الخطة، أن ينظر أحد القوم تحت قدميه، ليرى الرسول وصاحبه فى الغار، وهذا ما خشيه

أبو بكر، وصرح به للرسول ﷺ حين قال: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، فقال له كلمته المؤمنة الواثقة: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما»؟ ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]

وهنا تجلى دور «التوكل» الحق، فبعد أن يبذل الإنسان ما فى وسعه ويتخذ من الأسباب والخطط ما يقدر عليه، ويدع ما لا يقدر عليه من مفاجآت القدر، لله وحده. وهنا تقع «إن الله معنا» موقعها وتؤتى أكلها.

٦ - إقرار منطق التجربة فى الأمور الدنيوية:

ولعل أظهر ما يميز «العلم» بالمفهوم العصرى أو الغربى: أنه لا يقوم على المنطق الشكلي أو الصورى أو القياسى الذى ينسب إلى أرسطو، وإنما يقوم على منطق الملاحظة والتجربة ويخضع فى نتائجه لما تأتيان به. ولهذا يسمى «العلم التجريبى» ويسمى منهجه «المنهج التجريبى».

وهنا أيضا نجد الرسول - عليه الصلاة والسلام - سبق إلى إقرار مبدأ التجربة فى الأمور الدنيوية الفنية، مثل أمور الزراعة والصناعة والطب وما شاكلها، فما أثبتت التجربة نفعه فى هذا فهو مطلوب شرعًا، وما أثبتت ضرره فهو مرفوض شرعًا.

وأوضح مثال لهذا المبدأ: موقفه عليه الصلاة والسلام من قضية تأبير النخل، حيث رأى أصحابه من الأنصار يفعلون ذلك، ولم يكن له بذلك عهد، حيث نشأ بمكة وهى واد غير ذى زرع، فقال لهم كلمة من باب الظن والتخمين، يشير بها إلى أن هذا العمل لا ضرورة له. وفهم الأنصار منها أنها من أمر الوحى والدين الذى لا يجوز مخالفته. فتركوا التأبير فى ذلك الموسم، فخرج التمر رديئا.

فلما علم ذلك عليه الصلاة والسلام بين لهم أن كلمته لم تكن من باب الوحى الإلهى، بل من باب المشورة الدنيوية. حسب ظنه الناشئ عن خبراته البيئية المحدودة، ثم قال لهم فى النهاية: «أنتم أعلم بأمر دنياكم» فهذه الشؤون الدنيوية الفنية المحض، متروكة لعقولهم ومعارفهم، يدبرونها

وفقا لمصلحتهم. وليس من شأن الوحى أن يتدخل فيها، فهم بها أدرى وأعلم.

والقصة فى صحيح مسلم، ومسند أحمد وغيرهما، رواها عدد من الصحابة منهم طلحة بن عبيد الله، ورافع بن خديج، وعائشة، وأنس رضى الله عنهم.

ففى المسند عن طلحة رضي الله عنه قال: مررت مع النبى - ﷺ - فى نخل المدينة، فرأى أقواما فى رؤوس النخل، فقال: ما يصنع هؤلاء؟ قال يأخذون من الذكر فيحطون فى الأنثى يلقحون به فقال: «ما أظن ذلك يغنى شيئا. فبلغهم، فتركوه ونزلوا عنها، فلم تحمل تلك السنة شيئًا. فبلغ ذلك النبى ﷺ، فقال: إنما هو ظن ظننته، إن كان يغنى شيئًا فاصنعوا، فإنما أنا بشر مثلكم، والظن يخطئ ويصيب، ولكن ما قلت لكم: قال الله عز وجل: فلن أكذب على الله» (١).

وفى صحيح مسلم (٢) من رواية رافع بن خديج أنه قال لهم: «إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشئ من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشئ من رأيى، فإنما أنا بشر».

وفيه (٣) من رواية عائشة وأنس: أنه ﷺ قال لهم بعد أن خرج التمر شيصًا - بسرًا رديئًا - ما لنخلكم؟!. قالوا: قلت كذا وكذا. قال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم».

فالقانون الذى يجب الخضوع له هنا: هو القانون الذى تنتجه الخبرة والممارسة، أو المشاهدة والتجربة. ويكفى العقل الإنسانى فى هذه الأمور هاديًا

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسند طلحة حديث رقم (١٣٩٩) قال الشيخ شاكر إسناده صحيح وقد جاء فى المسند مختصرا برقم (١٣٩٥) ورواه مسلم فى الفضائل (٢٣٦١).

(٢) رواه مسلم من حديث رافع بن خديج فى الفضائل (٢٣٦٢).

(٣) رقم ٢٣٦٣.

ودليلاً. أما الوحى فحسبه أن يضع للناس القيم والمبادئ العامة والضوابط. ثم يدع البشر يتصرفون تبعًا لما يعلمون. وحسبهم هذه الكلمة الجليلة: «أنتم أعلم بأمر دنياكم».

٧ - النزول عند رأى الخبراء وأهل المعرفة:

ومن دلائل العقلية العلمية الحقة: النزول عند رأى الخبراء، وأهل الذكر، والمعرفة فى كل فن من الفنون أو خبرة من الخبرات. وهذا ما هدى إليه القرآن فى مثل قوله ﴿ **فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيراً** ﴾ [الفرقان: ٥٩] ﴿ **وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ** ﴾ [فاطر: ١٤]

ففى الأمور الحربية، يجب الوقوف عند رأى الخبراء العسكريين، وفى الاقتصاد يؤخذ برأى الاقتصاديين، وفى الصناعة تحترم توصيات الصناعيين ... وهكذا.

وفى معركة بدر الكبرى، حيث التقى الرسول والمسلمون بالمشركين من قريش، ونزلت قريش بالعدوة القصوى من الوادى، وخرج الرسول يبادرهم إلى الماء، حتى جاء أدنى ماء بدر فنزل به.

وهنا يتقدم الحباب بن المنذر الأنصارى إلى النبى ﷺ، باقتراح يقول فيه: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل: أمنزل أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه ولا أن نتأخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟! قال: «بل هو الرأى والحرب والمكيدة» قال: يا رسول الله، إن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نغور ما وراءه من القلب [١]، ثم نبنى عليه حوضًا، فنملأه ماء، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأى» [٢].

---

(١) نغور: ندفن ونطمس، القلب بضم القاف واللام: جمع قليب وهو البئر.

(٢) الحديث فى سيرة ابن هشام ج٢ ص ٢٧٢ عن ابن إسحاق قال: فحدثت عن رجال من بنى سلمة أنهم ذكروا أن الحباب ... إلخ .. قال الشيخ الألبانى فى تخريج «فقه السيرة» للغزالى: وهذا سند ضعيف لجهالة الواسطة بين ابن إسحاق والرجال من بنى سلمة (وايضا هؤلاء الرجال مجهولون، ولا يدرى أعاصروا الحباب أم لا) ووصل الحاكم هذا الخبر فى المستدرك (ج ٣/ ٤٢٧)، ولكنه لم يصححه، وأنكره الذهبى. ولكن وصله ابن حجر فى الإصابة ج ١/ ٤٢٧ من طريق ابن إسحاق فى السيرة، قال: حدثنى يزيد بن رومان عن عروة وغير واحد فى قصة بدر =

يريد الحباب بسؤاله أن يستوضح عن اختيار النبى ﷺ للمكان الذى نزل به: أهو بوحى من الله، فلا يسعه إلا السمع والطاعة والتنفيذ بكل دقة، أم هو من التدابير العسكرية التى يتخذها النبى ﷺ بوصفه قائدا للمعركة وإماما للمسلمين؟ وفى هذه الحالة يستطيع أن يدلى بدلوه، ويشير برأيه، وبخاصة أنه خبير بالمنطقة، عالم بها وبقلبها كما ذكر ابن سعد (١).

وقدم الحباب مشروعه إلى النبى ﷺ فرحب به، ونزل عن رأيه الأول إليه، وقال بكل شجاعة ووضوح: «لقد أشرت بالرأى» ... ووضع الاقتراح موضع التنفيذ.

واقترح عليه سعد بن معاذ بناء عريش له، يكون فيه، ويشرف على المعركة من بعيد فأثنى عليه خيراً، ونفذ اقتراحه (٢).

وفى غزوة الأحزاب روى أن سلمان الفارسى أشار على رسول الله ﷺ بحفر الخندق حول المدينة، فقبل النبى مشورته وبادر بتنفيذها.

ولهذا لما أقبل فرسان المشركين تسرع بهم خيولهم حتى وقفوا على الخندق فلما رأوه قالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها (٣).

ولا عجب أن يقتبس المسلمون من أساليب الفرس أو الروم أو غيرهم ما يمتنعون به من عدوهم، وما يمكنهم من النصر عليه، وكل ما يعود عليهم بالخير فى حياتهم، فالوسائل لا حكم لها فى ذاتها، وإنما لها حكم مقاصدها.

= فذكر قول الحباب ... إلخ وهذا السند إلى عروة صحيح، إلا أن الحباب مات فى خلافة عمر وعروة ولد فى أواخرها، فلم يدركه. فالحديث مرسل، ولكنه بعضده شهرة القصة بين الصحابة الذين أدركهم عروة، وهم كثرة، والذين كانوا يروون أنباء الغزوات لأبنائهم – كما أن للحديث شاهدا بإسناد ضعيف عند ابن شاهين كما فى الإصابة أيضا، وقد نقلت كتب السيرة خبر الحباب، وتلقته بالقبول.

(١) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ١٥ طبعة بيروت.

(٢) «سيرة ابن هشام» ج ٢ ص ٢٧٢ – ٢٧٣ طبعة دار إحياء التراث العربى – بيروت.

(٣) «سيرة ابن هشام» ج ١ ص ٢٣٥.

٨ - اقتباس كل علم نافع:

ويحث النبى ﷺ، على اقتباس كل علم ينفع الإسلام وأهله ولو كان من عند غير المسلمين، كما رأينا كيف استفاد من أسرى المشركين فى بدر فى تعليم أولاد المسلمين الكتابة، كما جاء فى الحديث الذى أخرجه الترمذى وابن ماجة:

«الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها، فهو أحق بها»[١].

وقال على رضى الله عنه: العلم ضالة المؤمن، فخذوه ولو من أيدى المشركين[٢].

وينطبق هذا أكثر ما ينطبق على نتائج العلوم المادية المحضة التى لا يصطبغ بعقائد أصحابها ولا بأفكارهم، لأنها قوانين كونية عامة يدين بها المؤمن والكافر، ويخضع لسنتها البر والفاجر.

ومن هنا لم يجد المسلمون حرجًا فى اقتباس العلوم الكونية من الطب والكيمياء، والفلك، والبصريات، والرياضيات، وغيرها من أمم الحضارات القديمة مثل اليونان، والفرس، والروم، ولا سيما اليونان.

وهذا بخلاف الدراسات الأخرى التى تتصل بالدين والقيم والمفاهيم، وتؤثر فى وجهة نظر دارسها إلى الله والطبيعة والإنسان والتاريخ والمجتمع.

ومن هنا أنكر النبى ﷺ على عمر حين رآه يقرأ شيئا من صحائف أهل الكتاب من اليهود، لأن الله قد أغنى بالقرآن المحفوظ عن كتب أصابها التحريف والتبديل، واختلطت فيها كلمات الله بأوهام البشر، وأهواء الخلق، ففقدت الثقة بعصمتها، والدين لا يجوز أن يؤخذ إلا من مصدر إلهى معصوم، ثابت النسبة إلى الله تعالى.

روى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله، أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه

---

(١) الحديث ضعيف الإسناد، ولكن معناه صحيح رواه الترمذى فى العلم (٢٦٨٨) وقال حديث غريب، وابن ماجه فى الزهد (٤١٦٩).

(٢) «جامع بيان العلم» ج ١/ ١٢١.

أتى النبى ﷺ، بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فرآه النبى ﷺ فغضب فقال: «أمتهوكون [1] فيها يا ابن الخطاب؟ والذى نفسى بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شئ فيخبرونكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به. والذى نفسى بيده لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا أن يتبعنى» [2].

وإنما غضب النبى ﷺ، وتغير وجهه واشتد فى إنكاره، لأن الأمر هنا أمر دين لا يؤخذ إلا من الصادق المصدوق.

أما علوم الحياة وفنونها، وما يهتدى إليه الناس بعقولهم وتجاربهم فهو ملك عامة البشر، نأخذه من أى وعاء خرج، ونلتمسه من الشرق أو الغرب، ونقتبسه من المسلم والمشرك، كما رأيناه ﷺ، يستفيد من أسرى المشركين فى محو الأمية ويأخذ بفكرة حفر الخندق حول المدينة وهى من أساليب الفرس، ويستخدم المنجنيق فى حصار الطائف، ويخطب على المنبر وهو صنعة نجار رومى.

ونرى خلفاءه الراشدين يسنون للأمة أمورًا لم يكن للعرب بها عهد، وإنما اقتبسوها من غيرهم من الأمم، إذ رأوا فيها صلاحًا ونفعًا، فها نحن نرى عمر يستجيب لمقترحات بعض أصحابه فيأخذ بفكرة التاريخ، وفكرة تدوين الدواوين.

بل ذهب بعض الباحثين إلى أن التدوين قد بدأ منذ عهد النبى ﷺ، أخذا مما ذكرناه من قبل من الأمر بالإحصاء الكتابى للمسلمين بعد الهجرة [3].

---

(١) متهوكون: أى متحيرون، يعنى هل أنتم متحيرون، أو مترددون فى عقيدتكم حتى تأخذوا العلم من غير كتابكم ونبيكم؟.

(٢) رواه أحمد كما فى «ترتيب المسند» للشيخ أحمد عبد الرحمن البنا – كتاب العلم – رقم ٦٢ ونقل فى تخريجه عن صاحب «التنقيح» أن رجاله رجال الحسن، وهو عند أحمد. وابن ماجة عن ابن عباس، وإسناده حسن، وعند ابن حبان عن جابر أيضا باسناد صحيح. وفى الباب عن عبد الله بن ثابت الأنصارى عند أحمد وابن سعد والحاكم فى «الكنى» والطبرانى فى الكبير، والبيهقى فى شعب الإيمان، وعن جابر عند الدارمى (١ / ٤٤١).

الفتح الربانى ج ١ ص ١٧٥

(٣) انظر: «التراتيب الإدارية» أو نظام الحكومة النبوية للكتانى ج ١ ص ٢٢٧، ٢٢٨.

٩ - الحملة على الأوهام والخرافات:

وأهم من هذا كله، الحملة المشددة المتكررة على الأوهام، والخرافات، والشعوذات، التى كان لها فى الجاهلية سوق نافقة، ولها فى ظل كثير من الديانات السماوية المحرفة والوضعية سماسرة ودعاة، يقولون فيسمعون ويأمرون فيطاعون، ويدعون فيجابون، أولئك هم الكهنة والعرافون، والسحرة والمنجمون، الذين يزعمون أنهم قادرون على خرق سنن الكون، وهتك أستار الغيب، وكشف مكنونات الصدور.

وجاء الإسلام فأغلق - بقوة - هذه السوق المخربة، وحجر على تجارها المحترفين، وسماسرتها المخادعين، وصادر بضاعتها الزائفة، وأعلن فى وضوح مشرق أن سنن الله فى الكون لا تتبدل، وأن الغيب لا يعلمه إلا الله، وأن الخير كل الخير فى احترام السنن، ورعاية قانون الأسباب والمسببات.

ولا غرو أن نقرأ فى كتب السنة المشرفة مثل هذه الأحاديث عن رسول الله ﷺ، روى البخارى عن المغيرة بن شعبة. قال: كسفت الشمس يوم مات إبراهيم (ابن النبى - ﷺ - من مارية القبطية) فقال الناس: انكسفت لموت إبراهيم: فقال رسول الله - ﷺ -: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته». وبذلك طارد الأوهام التى شاعت عند الناس فى الجاهلية أن كسوف الشمس أو القمر إنما يحدث لموت عظيم أو نحو ذلك. وأثبت أنها آية من آيات الله، تجرى على سنن الله.

وهذه جملة أخرى من الأحاديث النبوية: «اجتنبوا السبع الموبقات». قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال: «الشرك بالله، والسحر ... الحديث»[١].

«ومن عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن علق شيئا وكل إليه»[٢]، أى: علق على نفسه تميمة أو حرزاً، أو نحوه، مما يزعمون أنه يقى من الجن أو العين أو المرض.

---

(١) رواه الشيخان من حديث أبى هريرة اللؤلؤ والمرجان (٥٦).

(٢) رواه النسائى من رواية الحسن عن أبى هريرة، فى تحريم الدم (٤٠٧٩)، وقد ذكرنا أن الراجح ثبوت سماعه منه.

« ليس منا من تطير أو تُطير له أو تكهن أو تُكهن له، أو سحر أو سُحر له ومن أتى كاهنا فصدقه بما يقول، كفر بما أنزل على محمد ﷺ »(١).

« من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد »(٢).

« ومن أتى عرافًا فسأله عن شئ فصدقه، لم تقبل له صلاة أربعين يومًا »(٣).

وعن ابن مسعود موقوفًا « من أتى عرافًا أو ساحرًا أو كاهنًا يؤمن بما يقول، كفر بما أنزل على محمد ﷺ »(٤).

والكاهن: هو الذى يخبر عن بعض المضمرات، فيصيب بعضها ويخطئ اكثرها، ويزعم أن الجن تخبره بذلك، والعراف: كالكاهن، وقيل: هو ساحر. وقال البغوى: العراف: هو الذى يدعى معرفة الأمور بمقدمات وأسباب يستدل بها على مواقعها، كالمسروق: من الذى سرقه؟ ومعرفة مكان الضالة، ونحو ذلك.

---

(١) رواه البزار بإسناد جيد من حديث عمران بن حصين، ورواه الطبرانى من حديث ابن عباس – دون قوله: – ومن أتى – الخ، بإسناد حسن كما فى الترغيب المنتقى (١٨٥٣)، وقد روى البزار الجملة الأخيرة من حديث جابر بإسناد جيد قوى ترغيب (المنتق: ١٨٥٤) وقال الهيثمى: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح، وفى ص (١٠٣، ١٠٤) قال: وثقه أبو حاتم وضعفه عمرو بن على خلا إسحاق بن الربيع وهو ثقة (٥/١١٧) وفى إسناده كلام ذكره الألبانى فى (غاية المرام) ولكنه ارتقى بالحديث إلى الحسن بحديث ابن عباس المشار إليه.

(٢) رواه أبو داود فى الطب (٣٩٠٤)، الترمذى فى الطهارة (١٣٥) ابن ماجه فى الطهارة (٦٣٩). وفى أسانيدهم كلام ذكره المنذرى فى مختصر السنن والحاكم، وقال: صحيح على شرطيهما.

(٣) رواه مسلم فى السلام (٢٢٣٠).

(٤) قال الهيثمى رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط وكذلك البزار ورجالهم ثقات المجمع ٥/١١٨.

ومثل الكاهن والعراف: المنجم – وهو الذى يدعى معرفة الغيوب المستقبلة عن طريق النجوم وما لها من أسرار وتأثيرات فى العالم الأرضى، وبعضهم يسمى المنجم كاهنًا.

وفى الحديث «من اقتبس علمًا من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد» (١).

وليس المراد بعلم النجوم هنا: علم الفلك أو الهيئة – كما يسمى من قبل – والذى نبغ فيه كثير من علماء المسلمين، والذى اتسعت بحوثه وامتدت جذوره فى هذا العصر، فهذا علم قائم على الملاحظة، والتجربة والقياس واستخدام الآلات، وبه استطاع الإنسان فى عصرنا أن يصل إلى القمر، ويجلب منه بعض الأتربة والصخور ليحللها ويستفيد من ورائها.

وليس فى هذا أى منافاة لحقيقة دينية، أو لقاعدة شرعية، أو لنص ثابت فى قرآن أو سنة.

ولست أستدل لذلك بقوله تعالى فى سورة الرحمن: ﴿**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ**﴾ [الرحمن: ٣٣]. ولا أفسر السلطان هنا بالعلم كما ذهب إلى ذلك بعض علماء العصر.

فالواضح أن سياق الآية يدل بوضوح أن الخطاب فى الآخرة لا فى الدنيا، وهو خطاب تعجيز للثقلين من الجن والإنس: أنهم لا يستطيعون الفرار من قبضة العدالة الإلهية إلا إذا خرجوا من ملك الله، وأنى لهم أن يخرجوا منه، وأين يذهبون؟ فمعنى «لا تنفذون إلا بسلطان» أى: لا تنفذون مطلقًا، لأنه لا سلطان لكم أمام سلطان الله تعالى.

---

(١) أبو داود فى الطب (٣٩٠٥)، وابن ماجه فى الأدب (٣٧٢٦) وأحمد (١/ ٣١١) من حديث ابن عباس. وقال النووى فى «الرياض» والذهبى فى «الكبائر» إسناد أبى داود صحيح الفيض (٦/ ٨٠).

أما الصعود إلى القمر فليس نفاذا من أقطار السموات والأرض، كيف، وهو لا يزال فى إطار المجموعة الشمسية، بل فى أقرب كوكب منها إلى الأرض، وهو القمر؟ فإذا اعتبرنا الصاعد إلى القمر خارجا من قطر الأرض كما هو الظاهر - حيث جعل القرآن القمر فى السماء ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ [الفرقان: ٦١] فإنه لم يخرج لحظة من أقطار السماء.

وأولى من ذلك الاستدلال بآيات التسخير للكون عامة وللشمس والقمر والنجوم خاصة. وهى كثيرة فى القرآن الكريم.

والمقصود: أن علم النجوم المحرم الذى يعد شعبة من السحر هو: علم تأثيرها لا علم تسييرها كما قال العلماء (١).

هذه التعاليم التى ذكرناها، جديرة بأن تهيئ أفضل مناخ نفسى وعقلى واجتماعى، لقيام فكر علمى وحياة علمية. وهذا ما رأينا مصداقه فى الحضارة الإسلامية الشامخة المتوازنة، التى وصلت الأرض بالسماء، وجمعت بين العلم والإيمان، ومزجت بين المادة والروح.

١٠ - الطب نموذجًا لعناية الرسول بالعلم التجريبى:

وإذا أردنا أن نتخذ مثلاً أو نموذجًا لعناية الإسلام عامة والرسول خاصة بالعلم القائم على التجربة، فلن نجد أفضل من الطب نموذجًا يتجسد فيه موقف القرآن والسنة من هذه العلوم.

وحسبى أن أسجل فى هذه السطور أهم المبادئ الأساسية التى جاء بها الإسلام، ووضع بها حجارة الأساس لقيام صرح مشيد لطب علمى سليم.

أولاً: قرر قيمة البدن وحقه على صاحبه «إن لبدنك عليك حقًا» وإذا كان حقه عليه أن يطعمه إذا جاع، ويريحه إذا تعب، وينظفه إذا اتسخ، فإن حقه عليه كذلك أن يداويه إذا مرض. ومعنى هذا أنه حق واجب لا يجوز أن يهمل أو

(١) انظر: فيض القدير ج ٣ ص ٢٥٦، ج ٦ ص ٨٠.

obeikandl.com

ينسى لحساب حقوق أخرى منها حق الله عز وجل، كما بينت ذلك الأحاديث التى دعت إلى الاعتدال، وبينت أنه منهج الإسلام وسنة نبيه «فمن رغب عن سنتى فليس منى».

وبهذا أبطل الإسلام الفكرة السائدة فى المذاهب الزهدية – مقاومة البدن وتعذيبه لترقيه الروح – معتبراً أن كيان الإنسان بشقيه: الروح والبدن معاً.

ثانيا: حل مشكلة الإيمان بالقدر الذى كان يعتقده كثير من الناس منافيًا للتداوى، وطلب العلاج، وهنا نجد أن النبى ﷺ، حين سُئل عن الأدوية التى تؤخذ للعلاج، والأسباب التى تتخذ للوقاية: هل ترد من قدر الله شيئاً؟

فكان جوابه البين الحاسم «هى من قدر الله»(١).

فبين بهذا الجواب أن الله يقدر الأسباب والمسببات جميعًا، فكما يقدر أن الداء ينتج من كذا أو كذا، يقدر أن دواءه يكون بكذا وكذا، وأن اتقاءه يكون بكذا وكذا، والمؤمن الفقيه من يدفع قدر الله بقدر الله كما يفر من قدر الله إلى قدر الله.

ثالثا: فتح باب الأمل أمام الأطباء والمرضى معًا – فى إمكان الشفاء من أى مرض كان، وقضى على اليأس المحطم للنفوس. ورفض فكرة الأمراض المستعصية على الشفاء. وجاء فى ذلك جملة من الأحاديث:

«ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء» رواه البخارى عن أبى هريرة.

«لكل داء دواء، فإذا أصاب دواء الداء برئ بإذن الله» رواه مسلم وأحمد عن جابر.

وجاء أعرابى فقال: يا رسول الله أنتداوى؟ قال: «نعم، فإن الله لم ينزل داء

---

(١) رواه من حديث أبى خزامه الترمذى فى الطب (٢٠٦٦) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه الطب (٣٤٣٧)، وأحمد (٣/ ٤٢١) والحاكم، وصححه، ووافقه الذهبى، مع أن فى إسناده ابن أبى خزامة، وهو مجهول، وباقى رجاله ثقات.

الا أنزل له شفاء. علمه من علمه وجهله من جهله» رواه أحمد عن أسامة ابن شريك.

فالدواء موجود فيما خلق الله، وما على أهل الاختصاص إلا أن يبحثوا ويجتهدوا، ولا يلقوا سلاحهم يأسًا، فسيصلون يومًا إلى ما يريدون.

قال الإمام الشوكانى: فى الحديث دليل على أنه لا بأس بالتداوى لمن كان به داء، قد اعترف الأطباء بأنه لا دواء له وأقروا بالعجز عنه».

رابعا: اعترف بسنة الله فى العدوى، فقال ﷺ: «فر من المجذوم فرارك من الأسد» وامتنع عن مبايعة مجذوم بوضع اليد فى اليد. بل اعترف بالعدوى فى عالم الحيوان أيضًا، فقال: «لا يوردن ممرض على مصح» والممرض صاحب الإبل المريضة بالجرب يجب أن يجنبها الاختلاط بالسليمة من الإبل ساعة ورود الماء.

وأما حديث «لا عدوى»: فمعناه أن الأشياء لا تعدى بطبعها وذاتها بل بتقدير الله تعالى وما وضع من سنن فى خلقه.

كما سبق بإقرار مبدأ الحجر الصحى، أو العزل الصحى حين قال عن وباء الطاعون: «إذا سمعتم به بأرض، فلا تدخلوا عليه، وإذا وقع وأنتم بأرض فلا تخرجوا منها فراراً منه». متفق عليه.

خامسًا: قاوم ما يسمى (الطب الروحانى) طب الكهنة والسحرة، وأمثالهم من المتاجرين بعمل التعاويذ والتمائم والودع وغيرها مما شاع فى الجاهلية، وكانت له سوق نافقة، أبطلها رسول الله ﷺ، واعتبرها من الشرك، وأعلن عليها حربًا لا هوادة فيها، ولم يسمح من الرقى إلا بما فيه ذكر الله تعالى وأسمائه الحسنى، لأن هذا مجرد دعاء، وهو مشروع محمود.

سادسًا: كان النبى ﷺ بقوله وعمله وتقريره أسوة حسنة فى الهداية إلى الطب الصحيح، القائم على العلم والتجربة، لا على التهويل والادعاء.

فهو ﷺ تداوى لنفسه وأمر بالتداوى، لأن الذى خلق الداء خلق الدواء.

وأرسل طبيبًا إلى أبى بن كعب، فقطع له عرقًا وكواه عليه [١]، أى أنه أجرى له عملية جراحية. وأمر آخر أن يأتى الحارث بن كلدة الطبيب العربى المشهور من ثقيف. قال ذلك لسعد بن أبى وقاص [٢].

ولم يثبت إسلام الحارث. ولهذا استدل العلماء بما ذكر على جواز الاستعانة بأهل الكفر فى الطب [٣]، وإن كان الأولى أن يعالج المسلم مسلم مثله ولا سيما أن هناك أحكامًا شرعية كجواز الفطر فى رمضان ونحوه تترتب على حكم الطبيب.

وأصيب أحد الصحابة بجرح فاحتقن الدم، فدعا النبى ﷺ رجلين من بنى أنمار فنظروا إليه فسألهما رسول الله: «أيكما أطب، (أى: أحذق وأمهر؟)» فقالا: أوفى الطب خير يا رسول الله؟ فقال: «أنزل الدواء الذى أنزل الداء» [٤].

قال ابن القيم: فى هذا الحديث إنه ينبغى الاستعانة فى كل علم وصناعة بأحذق من فيها، فإنه إلى الإصابة أقرب [٥].

سابعًا: جاء عنه ﷺ: «من تطبب ولم يُعلم عنه الطب فهو ضامن» [٦] وبهذا طارد الأدعياء الذين يتزيون بهيئة أهل الطب وليسوا من أهله، وحملهم مسؤولية أخطائهم فى التشخيص والعلاج، واحترام أهل الاختصاص والخبرة. فلكل علم رجاله ولكل صناعة أهلها، ولا ينبئك مثل خبير.

وفى هذه المبادئ السبعة ما يكفى لإلقاء الضوء على موقف الرسول من الطب وهو موقف سبق عصر النهضة فى الغرب بقرون، وقام على أساسه فى عالم الإسلام طب نظرى وعملى، كانت كتبه مراجع لأوروبا وغيرها عدة قرون، ويكفى فى ذلك كتاب «القانون» لابن سينا، و«الحاوى» للرازى، و«الكليات» لابن رشد.

---

(١) رواه مسلم فى السلام (٢٢٠٧). (٢) رواه أبو داود. فى الطب (٣٨٧٥).

(٣) التراتيب الإدارية للكتانى ج ١/٤٥٧. (٤) رواه مالك فى الموطأ (٥٧٥٧).

(٥) زاد المعاد ج ٣/٢٢٥.

(٦) رواه أبو داود فى الديات (٤٥٨٦) والنسائى (٤٨٣٠) وابن ماجه فى الطب (٣٤٦٦) والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو. وقال الحاكم: صحيح، واقره الذهبى (انظر: فيض القدير ج ٦/١٠٦).